الاغتيال الثاني للسادات

الفصل الرابع
السادات والسوفييت

◆◆◆

obeikan.com

obeikan.com

« في السياسة ليس هناك عدو دائم أو صديق دائم هناك مصالح دائمة »

« تشرشل »

«لا أستطيع التكهن برد فعل روسيا، فهو فزورة مغلفة بلغز داخل سر...»

« تشرشل »

أفردت فصلاً كاملاً يخص علاقة الرئيس السادات بالاتحاد السوفييتى منذ توليه حكم مصر خليفة لسلفه الرئيس عبد الناصر ؛ لأن علاقة مصر بالاتحاد السوفييتى كان لها أسبابها التاريخية وأبعادها السياسية شديدة الأهمية ومرت بمراحل مختلفة وتحولات مفاجئةٌ ؛ فكان من الصعب اختزالها وتضمينها فى أحد الفصول ...

ووجدت من الصعب أن أخوض فى تحليل الأحداث التى جعلت الرئيس السادات يصطدم بالسوفيت ، ويقرر إنهاء تواجدهم فى مصر قبل أن نحاول أن نلقى نظرة تاريخية نستقرأ بها الأحداث تباعاً من أسباب لجوء مصر إلى المعسكر الشرقى ، ثم انحياز مصر الكامل للاتحاد السوفييتى والاعتماد عليه كمصدر رئيسى للتسليح خاصة بعد النكسة ، وقيام الزعيم جمال عبد الناصر بمجهودات مضنية من أجل إعادة بناء وتنظيم القوات المسلحة معتمدا على مستودع السلاح السوفيتى ورحلاته المتكررة إلى موسكو لإبرام صفقات الأسلحة مع القادة السوفييت التى توجت ببناء حائط الصواريخ، ثم رحيل الرئيس عبد الناصر بعد قبوله مبادرة روجرز ، ثم تولى الرئيس السادات الحكم وتزايد الحذر والشكوك بينه وبين السوفيت إلى أن أصدر قراره الشهير بطردهم ، وبدون الغوص فى عمق الأحداث ستطفو السياسة التى انتهجها السوفييت نحو تسليح ودعم مصر عسكريا لترفع عن كاهلها عبء الاحتلال الإسرائيلى لأراضيها....

***

تسليح مصر يكسر احتكار السلاح الغربى !

بعد نجاح ثورة يوليو فى التحرر من القبضة البريطانية بعد توقيع اتفاقية الجلاء وإنهاء الوجود البريطانى فى مصر كان لابد وأن تلتفت سريعاً إلى إعادة بناء قواتها المسلحة كمبدأ شديد الأهمية من مبادئ الثورة ، فكان من الطبيعى أن تتجه إلى المعسكر الغربى[1] الذى اعتادت على طرق أسواقه ولكن الثورة فى سعيها هذا قوبلت باللامبالاة الأمريكية والتسويف البريطانى ، وعلى الجانب الآخر كانت فرنسا تزود إسرائيل بأحدث مافى ترساناتها العسكرية ومن ذلك صفقة النفاثات الأوراجان قبل نهاية عام ١٩٥٤[2] ، إزاء هذا كله قبل الرئيس عبد الناصر العرض الشرقى فى ٢٧ سبتمبر عام ١٩٥٥ ، والذى وافقت بموجبه تشيكوسلوفاكيا على تقديم ما تحتاجه مصر من أسلحة فكانت صفعة قوية للغرب حيث استطاعت مصر كسر الاحتكار الغربى للسلاح ، وكانت نصراً سياسياً كبيراً للاتحاد السوفييتى وبالطبع لم تغفل إسرائيل فى استغلال الموقف المصرى فى إثارة الغرب ضد مصر فكانت أحداث العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ، ولم تكن مصر قد أكملت تسليحها بعد وما أن زالت آثار العدوان حتى بدأت تكمل تعاقداتها مع تشيكوسلوفاكيا ، وتزايدت الصفقات مع السوق الشرقى ، وتم إرسال بعثات من العسكريين المصريين للتدريب فى مدارس الكتلة الشرقية ، وكانت إسرائيل على الجانب الأخر تستكمل تسليحها وتمهد سياسيا لعدوان مفاجئ ، حتى نجحت فى شنه صباح الخامس من يونيو عام ١٩٦٧[3] بضربة جوية مفاجئة أخرجت الطيران المصرى من المعركة منذ اللحظات الأولى ، وما تلا ذلك من أحداث مريرة وهزيمة قاسية للعرب كسبت فيها إسرائيل سيناء والجولان والضفة الغربية لنهر الأردن وقطاع

(١) مصر كانت قبل ذلك جزءاً من المعسكر الغربى بحكم معاهدة ١٩٣٦ والتى أبرمها النحاس باشا والذى ألغاها هو أيضا عام ١٩٥١ .

(٢) اللواء طيار أركان الحرب على محمد لبيب – القوة الثالثة تاريخ القوات الجوية المصرية – ص ١٠٠ .

(٣) يذكر أن جاء تحذير سوفييتى لمصر فى الثالثة صباح يوم ٥ يونيه بعدم البدء بإطلاق النيران ! .

غزة نتيجة للتخطيط الإسرائيلى الجيد ،وتخبط القيادة العسكرية المصرية فى ظل قرارات سياسية دفعت الموقف إلى الانفجار[١]

من عدم الانحياز إلى الانحياز الكامل !

وبعد أن أفاقت مصر من الهزيمة رأت القيادة السياسية المصرية أن الاتحاد السوفيتى وقف يشاهد ماحدث دون تدخل ، نظراً لعدم وجود اتفاق بينه وبين مصر يتيح التدخل بينما إسرائيل تلقى تأييدا كاملاً من حليفتها الولايات المتحدة ، فأدرك الرئيس عبد الناصر أنه لا مفر من الانحياز الكامل للاتحاد السوفييتى لتوريطه معه فى الصراع العربى الإسرائيلى ،وأنه لا جدوى من سياسة عدم الانحياز Non - Alignment بالنسبة لمصر وإسرائيل تلقى التأييد والدعم الكامل من الولايات المتحدة ، وأراد عبد الناصر أن يشرك موسكو فى أزمة الشرق الأوسط وأن يجر قدم السوفييت فى النزاع العربى الإسرائيلى مما يحقق لعبد الناصر أن يرفع مستوى النزاع من المستوى المحلى إلى المستوى الدولى ، وبالفعل تم التحالف Alliance بين مصر والاتحاد السوفييتى وتم الاتفاق بين الرئيس عبد الناصر والسوفييتي على إعادة تسليح الجيش المصرى وأتيحت تسهيلات للأسطول السوفييتي[٢] فى مينائى الإسكندرية وبورسعيد ، وطالب السوفييت المصريين بالصبر وحذروهم من مغبة الإقدام على أى مخاطرة عسكرية .

(١) قامت القيادة السياسية فى ١٤ مايو عام ١٩٦٧ ، بإعلان حالة الطوارئ ورفع درجة استعداد القوات المسلحة المصرية إلى الحالة القصوى وبدأت فى اليوم التالى فى حشد قواتها فى سيناء نتيجة للتهديدات الإسرائيلية لسوريا ، كما أعلنت مصر عن سحب قوات الطوارئ التابعة للأمم المتحدة ، كما أصدرت مصر قراراً بإغلاق مدخل خليج العقبة (مضيق تيران) أمام الملاحة الإسرائيلية .

(٢) بهذه الخطوة لم يعد البحر حكراً على الأسطول السادس الأميريكى ، وأصبح للروس وجود بحرى ونفوذ عسكرى يضيق الخناق على الأسطول السادس ، إلا أن موسكو لم تسع أبداً إلى المواجهة العسكرية مع الأسطول السادس الأمريكى ولكنها أرادات حرمانه من كامل الحرية التى كان يتمتع بها .

التسليح السوفيتى لمصر :

وبدأ الاتحاد السوفييتى بإغداق الأسلحة على الجيش المصرى الذى بدأ يسترد ٧٠٪ من عافيته عام ١٩٦٨[١] ، كما استعانت مصر بمستشارين عسكريين سوفيت لتدريب القوات المسلحة على الأسلحة والمعدات وبدأ الدفاع المصرى فى منطقة القناة يتماسك يوماً بعد يوم واستعادت قواتنا المسلحة كفاءتها القتالية جزئيا فبدأت مصر بتنشيط الجبهة بالدخول فى مرحلة «الدفاع النشط» وبدأت مصر تشن بعض الغارات والكمائن على العدو والاشتباك بالنيران بجانب مناوشات المدفعية على طول الجبهة ثم تطورت هذه المرحلة – حسب تطور التسليح – إلى حرب الاستنزاف والتى بدأت فى ٨ مارس ١٩٦٩ بقصف مدفعى مركز لتحصينات ومواقع العدو على الضفة الشرقية للقناة حتى تحرم إسرائيل من مواصلة استكمال بناء خط بارليف وصعدت مصر من أعمال القتال وزادت فاعلية ضرباتها للقوات الإسرائيلية الأمر الذى دفع إسرائيل على الزج بقواتها الجوية[٢] فى حرب الاستنزاف بشن غارات شديدة على العمق المصرى ولم تكن قوات الدفاع الجوى والقوات الجوية بقادرة على التصدى للقوات الجوية الإسرائيلية نتيجة للسياسة التى اتبعها الاتحاد السوفييتى نحو مصر عقب حرب يونيو ، والتى كانت تقتضى بعدم تزويد مصر بأسلحة هجومية تجعل لها التفوق العسكرى على إسرائيل[٣] .

لقاء القمة فى موسكو ونتائجه الهامة

بدأت غارات[٤] العمق الإسرائيلى تزداد كثافة وضراوة وفى سبيل إنقاذ الموقف

(١) صرح الفريق أول محمد فوزى فى فبراير ١٩٦٨ بأن حالة القوات المسلحة المصرية بلغت نسبة ٧٠٪ من حجمها الذى كانت عليه قبل عدوان ٥ يونيو .

(٢) حصل موشيه ديان على موافقة حكومته على دخول سلاح الطيران الإسرائيلى المعركة فى ١٣ يوليو ١٩٦٩.

(٣) المشير الجمسى – مذكرات الجمسى حرب أكتوبر ١٩٧٣ – الطبعة الثانية – ص ١٦٧

(٤) كان من أكثر جرائم التاريخ التى لا تغتفر إغارة الطائرات الإسرائيلية على مدرسة بحر البقر حيث استشهد لنا حوالى ثلاثين تلميذاً فى عمر الزهور .

سافر الرئيس عبد الناصر إلى موسكو فى ٢٢ يناير ١٩٧٠ لطب أسلحة ومعدات دفاع جوى أكثر تقدما وتمخض لقاء القمة بين الرئيس عبد الناصر والرئيس بريجنيف عن نتائج خطيرة سياسياً وعسكرياً حيث وافق السوفييت على تزويد مصر بصواريخ سام ٣ لأغراض الدفاع عن عمق مصر، بالإضافة إلى الفنيين السوفييت[١] اللازمين لتشغيلها وتدريب المصريين عليها (كان هذا بداية تزايد الوجود السوفييتى فى مصر) ،وحتى تصل الأسلحة السوفييتية ومعدات الدفاع الجوى كان لابد من إنشاء التحصينات والمواقع اللازمة للصواريخ ، وبدأت مصر فى بناء حائط الصواريخ تحت القصف الإسرائيلى المتواصل وخلال ليلة ٢٩/ ٣٠ يونية دخلت أولى وحدات الصواريخ ، وبدأت فى عملها بتكبيد خسائر فادحة للطيران الإسرائيلى حيث يقول المشير الجمسى فى مذكراته « وفى صباح ٣٠ يونيو ١٩٧٠ ، فوجئت الطائرات الإسرائيلية بوجود صواريخ الدفاع الجوى المصرى فى مواقعها تكبدها خسائر لم تكن فى الحسبان ».

مبادرة روجرز:

وبدأ أسبوع (١ - ٧ يوليه) التساقط السريع للطائرات الإسرائيلية على جبهة القناة . بفعل صواريخ الدفاع الجوى المصرى وبدأ الحديث فى إسرائيل عن تآكل سلاح الجوى الإسرائيلى وإزاء هذا التصاعد أُرغمت إسرائيل على قبول مبادرة روجرز التى كانت تقضى بإيقاف إطلاق النار بين مصر وإسرائيل لمدة ثلاث شهور كما وافقت عليها مصر كفرصة لاستكمال المراحل الأخيرة من بناء شبكة الدفاع الجوى وحتى لا تستنزف نفسها هى الأخرى بالاستمرار فى القتال[٢] وبهذا

(١) علق بريجنيف على ذلك قائلاً : « إنها أول مرة يخرج فيها جندى سوفييتى من الاتحاد السوفييتى إلى دولة صديقة منذ الحرب العالمية الثانية »

(٢) برر الرئيس عبد الناصر قبوله للمبادرة التى رفضها بعض العرب بقوله : « إن المضى فى حرب الاستنزاف فى حين إسرائيل تتمتع بتفوق جوى كامل معناه ببساطة أننا نستنزف أنفسنا »

انتهت حرب الاستنزاف فى ٨ أغسطس ١٩٧٠ «موعد بدء سريان وقف إطلاق النار Cease - Fire بين مصر وإسرائيل بحيث ينتهى فى ٥ نوفمبر ١٩٧٠» بعد أن تركت الجيش المصرى فى وضع دفاعى جيد فى ظل تفوق جوى إسرائيلى وفى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ رحل الرئيس عبد الناصر بعد قيامه بدور بارز فى إعادة بناء القوات المسلحة المصرية ، ثم تولى نائبه السادات الحكم ليبدأ عهد جديد فى العلاقات المصرية السوفييتية .

بداية اتصال السادات بالسوفييت

بعد أن تولى الرئيس السادات الحكم فى ١٧ أكتوبر ١٩٧٠ كان لابد لمصر أن تحدد موقفها من اتفاق وقف إطلاق النار مع إسرائيل حيث كان من المقرر أن ينتهى فى ٥ نوفمبر ١٩٧٠ فقرر الرئيس السادات تمديد فترة وقف إطلاق النار ثلاثة أشهر أخرى بحيث تنتهى فى ٥ فبراير ١٩٧٠ كفرصة لالتقاط الأنفاس فى ظل الظروف الصعبة والحرجة التى تولى فيها المسئولية ، وفى أوائل ١٩٧١ جدد الرئيس السادات الاتفاق بشهر واحد فقط ينتهى فى ٥ مارس ١٩٧١[١] ، وفى بدايات مارس كانت أولى زيارات الرئيس السادات للاتحاد السوفييتى وطالب فيها السوفيت بإكمال اتفاقيتهم مع الرئيس الراحل عبد الناصر خاصة الطائرات بعيدة المدى لتمثل سلاح ردع لهجوم الطائرات الإسرائيلية فى العمق ، وضرورة الإسراع بإرسال بطاريات الصواريخ لتأمين منشآت الصعيد ويروى الرئيس السادات تفاصيل اجتماعه مع القادة السوفييت قائلا[٢] « أثناء اشتباكى معهم فى هذا الاجتماع قالوا : إنهم على استعداد لأن يرسلوا لنا طائرات بالصواريخ ويدربوا عليها المصريين على ألا تستخدم إلا بموافقة الحكومة السوفييتية..عندئذ اشتد غضبى وقلت لهم :

(١) قرر الرئيس السادات رفض تجديد وقف إطلاق النار فى ٧ مارس ١٩٧١ غير أن مصر لم تبدأ بالقتال ، وكذلك فعلت إسرائيل .

(٢) السادات – البحث عن الذات- الطبعة الثالثة – ص ٢٣٣ .

« مفيش قرار فى مصر إلا لى كرئيس لمصر وأنا برفض هذه الطائرات ».

فوعد بريجنيف السادات بإرسال ثلاثين طائرة ميج [1]٢٥ لمصر لتستخدمها كقاذفات واتفقا على أن تأخذ أوامرها من القيادة المصرية ، غير أن بريجنيف لم يرسل شيئاً منها ، وبدأ السوفييت فى إرسال بطاريات الصواريخ فى أبريل١٩٧١ .

السادات يهدد نفوذ السوفييت :

بدأ السادات يتحرك سياسياً ودبلوماسيا وبدا للسوفييت وكأنه يقوض نفوذهم فى المنطقة ، ففى ١٥ أبريل ١٩٧١ كان توقيع الرؤساء السادات والأسد والقذافى لاتفاق إنشاء اتحاد الجمهوريات العربية وكان الاتحاد السوفييتى لا يروقه هذا كما أنه كان دائم القلق من الاشتراكية العربية من أيام الرئيس عبد الناصر ، ثم فاجأ «وليم روجرز» وزير الخارجية الأمريكية الجميع بزيارة إلى مصر فى مطلع شهر مايو ١٩٧١ وهى الزيارة الأولى [2] لوزير الخارجية الأمريكية منذ زيارة «جون فوستر دالاس» فى عام ١٩٥٣ فبدأ السوفييت الشك فى ولاء السادات لهم وأنه قد يغدر بهم إذا ما استجاب له الأمريكان [3] وفشلت مباحثات «روجرز» مع السادات إلا أنها كانت مبعث لفتح قنوات اتصال جديدة مع الأمريكان ، ثم جاءت أحداث عاصفة ١٥ مايو ١٩٧١ وإقصاء «على صبرى» ومجموعة مراكز القوى التى كانت تمثل ركائز رئيسية لنفوذ السوفييت فى مصر .

***

(١) ذكر السادات أنه يوجد منها أربع طائرات فى مصر ولكنها تأخذ أوامرها من موسكو ويعمل عليها طيارون سوفييت وطلب السادات منهم أن يبيعوها له أو تعود إلى موسكو ، فرفض السوفييت بيعها وعادت إلى موسكو .

(٢) تمت هذه الزيارة وكانت العلاقات الدبلوماسية مازالت مقطوعة بين البلدين منذ عام ١٩٦٧ .

(٣) يذكر أن الرئيس عبد الناصر حاول إبان مبادرة روجرز وبعدها أن يفتح طريقاً للحوار مع الأمريكان .

معاهدة الصداقة مع السوفييت:

أحس السوفيت بالخطر الشديد على نفوذهم فى المنطقة فأسرع «نيكولاى بودجورنى» رئيس هيئة مجلس السوفييت الأعلى إلى القاهرة فى ٢٥ مايو ١٩٧١ وطلب من السادات ضرورة إبرام معاهدة صداقة وتعاون بين البلدين ووافق السادات لبعث الطمأنينة والثقة لديهم وتم توقيع المعاهدة فى ٢٧ مايو ١٩٧١ وكانت مدتها ١٥ عاماً[١] وكان يشير أحد بنودها إلى تقديم الإتحاد السوفييتي لمصر دعماً عسكرياً من الأسلحة، تتيح لها العمل على تحرير أراضيها المحتلة ، «رغم تحفظ القيادة السوفييتية على قيام مصر بعمل عسكري لتحرير الأرض» وكان بودجورنى قد وعد السادات خلال المباحثات بإرسال الأسلحة التى يحتاجها بما فيها سلاح الردع ، وفوجئ الأمريكان بمعاهدة السادات مع السوفييت بعد أن بدأ يتصل بهم ، ولكن السادات أراد ألا يفقد السوفييت كقوى عظمى ومصدر للتسليح مع الاحتفاظ باتصالاته بالأمريكان فلم يهدر الورقة الأمريكية لتيقنه من أهميتها فى المستقبل وعلق الأستاذ «هيكل» على ذلك قائلاً « أنه ربما أراد تحقيق توازن بين مجموعة من القوى فى الداخل والخارج » فأراد السادات أن يأخذ السلاح من الاتحاد السوفييتى والتسوية من أمريكا ، وفرح السوفييت بالمعاهدة واعتبروها ضربة قاضية للأمريكان وعبرت الصحف السوفييتية عن ذلك غير أن فرحتهم لم تكتمل ، ففى يوليو ١٩٧١ حدث الانقلاب الشيوعى فى السودان ضد الرئيس جعفر النميرى ، فندد السادات بهذا الانقلاب وساند ودعم الرئيس جعفر النميرى[٢] الذى قتل الشيوعيين السودانيين الذين فشلوا فى الإطاحة به ، وكان السادات قلق من انتشار الخطر الشيوعى فى المنطقة واللعبة السوفييتية لعمل

(١) ذكر الأستاذ هيكل أن اعتراضه على المعاهدة كان سبباً فى تقليص مدتها إلى ١٥ عاماً بعد أن كانت مدتها المقترحة ٢٠ عاماً .

(٢) استولى جعفر النميرى على الحكم فى السودان إثر انقلاب قام به فى ٢٥ مايو ١٩٦٩ .

الأحزاب الشيوعية العربية لذا لم يتردد السادات فى مساندة النميرى ضد الشيوعيين حتى لا يقوم حكم شيوعى على حدوده ممكن أن يصدره الشيوعيون إلى مصر .

التسويف السوفييتى فى التسليح

غضب السوفييت من موقف السادات المعادى لسياستهم فى منطقة الشرق الأوسط فانقضى يوليو وأغسطس وسبتمبر دون أى رد من السوفييت بشأن الأسلحة حتى وافقوا على استقباله أخيراً فى موسكو ١١ أكتوبر ١٩٧١ وكان السادات قد أعلن فى خطابه أمام المؤتمر القومى للإتحاد الاشتراكي فى ذكرى ثورة يوليو أن عام ١٩٧١ هو عام الحسم لذا طالبهم السادات بضرورة إرسال الأسلحة بأسرع ما يمكن حتى يتمكن من تحريك الموقف قبل نهاية السنة التى أعلنها أنها «سنة الحسم» ووعد السوفييت السادات بتلبية مطالبه من الأسلحة ، وكان «الفريق صادق» وزير الحربية قد سافر على رأس وفد عسكرى إلى موسكو لعرض قائمة الأسلحة التى يحتاجها الجيش وعاد يوم ١٦ أكتوبر ومعه اتفاق من موسكو على توريد الأسلحة المطلوبة وانقضى أكتوبر ونوفمبر ولم يرسل السوفييت شيئًا، ثم جاء ديسمبر بأحداث الحرب فى شبه القارة الهندية بين الهند وباكستان «خلال الفترة من ٣ – ١٦ ديسمبر» حيث تدخلت الهند لفصل الإقليم الشرقى من باكستان وانشغال السوفيت بمساعدة الهند[١] فى حربها مع باكستان التى انتهت بانتصار الهند واستقلال باكستان الشرقية تحت اسم بنجلاديش[٢] ومرت السنة دون حسم وكما يقول الفريق «سعد الشاذلى» فى مذكراته « كان واضحاً أنهم لا يشجعوننا على القيام بالهجوم قبل نهاية عام ٧١ » فاشتعل الموقف فى مصر وقام طلبة الجامعات

(١) كانت سياسة الاتحاد السوفييتى تقوم على مساعدة الهند بجانب علاقات قوية مع الصومال للسيطرة على المحيط الهندى كدولتين يسيطران على شواطئ المحيط الهندى فى إطار السياسة العامة لتوازن القوى .

(٢) خاضت محاولات الاستقلال عن باكستان منذ ١٩٦٦ واستمرت حتى استقلت عن باكستان في ١٦ ديسمبر ١٩٧١.

بمظاهرات تندد بسياسة الاتحاد السوفييتى وتطالب بالحرب مع إسرائيل فى يناير ١٩٧٢ وكان الشعور باليأس قد مزقهم كما هاجم الفريق «صادق» وزير الحربية الاتحاد السوفييتى لأنهم لم يوردوا الأسلحة المطلوبة حتى الآن وأنهم يحولون دون رغبتنا فى الهجوم ، كما ينشرون شائعات مسمومة بين الضباط بأن القوات المسلحة لديها الأسلحة الكافية ولكن كبار القادة لا يرغبون فى القتال ، وعلى الجانب الآخر كانت المعركة الانتخابية تسيطر على تفكير الرئيس «نيكسون» ولكسب الرأى العام اليهودى كقاعدة شعبية هامة فى الولايات المتحدة سارع إلى إرضاء إسرائيل فأصدر تعليماته إلى «روجرز» وزير خارجيته بتجميد أى مبادرة أو تحرك لحل قضية الشرق الأوسط ، وتزويد إسرائيل بالمزيد من السلاح والعتاد ، وأعلن روجرز أيضاً أن أمريكا قد دخلت منذ نوفمبر ١٩٧١ فى تصنيع الأسلحة مع إسرائيل وأن أمريكا ستحتفظ بالتفوق لإسرائيل على سائر العرب ، وفى ٢ فبراير ١٩٧٢ توصلت إسرائيل لتوقيع اتفاق مع الولايات المتحدة حصلت إسرائيل بموجبه على ٤٢ طائرة فانتوم و ٨٢ طائرة سكاى هوك[١] ، كما تعهدت الولايات المتحدة لإسرائيل بأنها لن تتقدم بأى مبادرة سياسية قادمة فى الشرق الأوسط قبل مناقشتها مع إسرائيل وكان هذا التعهد الأمريكى أكثر الأمور خطورة على قضية الصراع العربى الإسرائيلى لأن الموقف الأمريكى أصبح رهينة للسياسة الإسرائيلية ، وفى مواجهة هذا الموقف سافر السادات إلى موسكو فى ٢فبراير ١٩٧٢وكالعادة لم تسفر عن شيء سوى أن السوفييت أكدوا التزامهم باتفاقية أكتوبر ١٩٧١ لتوريد الأسلحة ، ثم سافر الرئيس السادات بناء على طلب السوفييت إلى موسكو فى ٢٧أبريل ١٩٧١ واتفق معهم على أن يوردوا الأسلحة المتأخرة التى تم التعاقد عليها بعد زيارة الرئيس نيكسون لهم المقرر أن تكون فى ٢٠ مايو ١٩٧٢ وذلك خلال خمسة شهور أى من يونيو إلى أكتوبر ١٩٧٢ ميعاد الانتخابات فى الولايات المتحدة وذلك ليكون

(١) المشير الجمسى – مذكرات الجمسى حرب أكتوبر ١٩٧٣ – الطبعة الثانية – ص ١٩٩.

الجيش مستعدًا فى نوفمبر ١٩٧٢ بعد انتخاب الرئيس الأمريكى فإذا لم يكن هناك حل سلمى عن طرق الرئيس المنتخب نكون مستعدين للتحرك عسكرياً.

الوفاق الدولى واللاسلم واللاحرب

فى ١٥ مايو ١٩٧٢ حضر المارشال «جريتشكو» إلى القاهرة ، معه «كوتاكوف» قائد القوات الجوية السوفييتية وجرى استعراض جوى بحضورهم هم والرئيس السادات للطائرة ميج ٢٥ والطائرة سوخوى ١٧ التى طلب «جريتشكو» من السادات أن يعلنها كطائرة قاذفة بعيدة المدى تمتلكها مصر رغم أنها كما يقول الفريق الشاذلى فى مذكراته « كما أن الطائرة سو ١٧ لا يمكن اعتبارها بأى حال من الأحوال طائرة قاذفة مقاتلة بعيدة المدى »! ورغم ذلك أيضاً وافق السادات على إعلان ما أراده القادة السوفيت بل ومنحهم النياشين وكان السادات دائم التغطية لمواقف السوفيت ويعلن أن الإتحاد السوفييتى هو صديقه الوحيد رغبة منه فى الاحتفاظ بالدعم السوفييتى العسكرى وطمأنة السوفيت من ناحيته وكان لهذا الإعلان عن الطائرة بهذا الوصف أهميته بالنسبة للسوفييت قبل قمتهم المرتقبة بعد ذلك بأيام مع الرئيس نيكسون فى موسكو وذلك لاستعراض نفوذهم فى الشرق الأوسط كدولة عظمى وهو ما وعاه السادات جيداً وسايرهم فى هدفهم لعل السوفييت يصلون مع الأمريكان إلى حل يحقق تقدما فى قضية الشرق الأوسط ، ولكن جاءت نتائج قمة موسكو «فى الفترة من ٢٢ مايو إلى ٣٠ مايو ١٩٧٢» مخيبة للآمال حيث اتفقت الدولتان العظميان على تجميد الموقف فى الشرق الأوسط والاسترخاء العسكرى Military Relexation فى المنطقة فيما عرف بسياسة الوفاق الدولى وهذا يعنى استمرار الوضع كما هو عليه الذى بلا شك يخدم المصالح الإسرائيلية ويضر بمصالح الدول العربية المحتلة وهو ما عبرت عنه جولدا مائير بقولها « إننا لم نكن فى يوم من الأيام أحسن حالاً مما نحن الآن ، فالوضع القائم هو أكثر الأوضاع ملائمة لأمن إسرائيل؛ لأن العرب لا يملكون الخيار العسكرى »

وبالطبع كان ذلك يمثل صدمة للرئيس السادات وإن كان متوقعا ذلك وبهذا رأى السادات أن الاتحاد السوفييتى تخلى عن مبادئه مقابل المصالح والمكاسب التى سيحصل عليها من جراء تطبيع علاقاته مع أمريكا .

قرار طرد السوفيت

كانت نتائج قمة موسكو ثم التحليل السوفييتى لنتائج القمة الذى يعنى عدم إمكانية إحراز أى تقدم فى الشرق الأوسط مما يعنى زيادة إحجام السوفيت عن إمداد مصر بأسلحة هجومية متطورة حتى لا تخرج قضية الشرق الأوسط عن المسار الذى رسمته سياسة الوفاق ، وكانت مصر قد حاولت كفرصة أخيرة خلال شهر يونية الاتصال بالقوتين العظميين لمعرفة موقفهما النهائى من القضية ولكن دون جدوى فالسوفيت مازالوا معارضين لشن الحرب إلى جانب تلكؤهم فى إمدادنا بالسلاح الهجومى بجانب موقف أمريكا الداعم لموقف إسرائيل فكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى غير راغبتين فى حدوث أى نزاع فى المنطقة من شأنه أن يطور الموقف إلى تورطهما فيه بمواجهة مباشرة بينهما ، ورأى السادات أن الوجود السوفييتى فى مصر فقد مبرر بقائه فكان قرار السادات بطرد الخبراء السوفيت والذي أخطر به السفير السوفييتي في ٨ يوليه ١٩٧٢ ، محدداً يوم ١٧ يوليه كحد أقصى للمغادرة ، غير أن القرار لم يتعرض لمعاهدة الصداقة بينهما واعتبار القرار لا يعنى إنهاء العلاقة بينهما ، وقد بنى السادات استراتيجية قراره على عدة اعتبارات أهمها :

- موقف الاتحاد السوفييتى المتعنت من إمدادنا بالأسلحة التى نحتاجها.
- ألا تبدأ المعركة وعلى أرض مصر خبراء سوفييت .
- الحد من تغلغل النفوذ السوفييتى فى مصر والذى اقترب من شكل النفوذ البريطانى فى مصر وقت احتلالها[1] وتحديد دوره كدولة صديقة تمدنا بالسلاح

(١) وصف الأستاذ هيكل المعاهدة المصرية السوفييتية بأنها تشبه المعاهدة المصرية – البريطانية سنة ١٩٣٦ .

وتساندنا إلى حد ما سياسياً لا أكثر من ذلك .

– لن يسمح السوفييت لمصر ببدء الحرب حتى لا يتورط فى مواجهة مع الولايات المتحدة حيث كان من الصعب فى ظل الوجود السوفييتى القيام بحرب دون إذن من السوفييت وذلك حسب بنود المعاهدة بينهما .

– الضغوط النفسية[1] التى يمارسها الخبراء السوفيت المنتشرين فى تشكيلات ووحدات القوات المسلحة من خلال محاولة نشر حالة من اليأس والإحباط وخلق شعور فى القوات المسلحة بالعجز عن القيام بعمل عسكرى حاسم ضد القوات الإسرائيلية وتحصيناتها وخطوطها المنيعة المقامة شرق قناة السويس .

– تدهور الثقة بين القادة المصريين والمستشارين السوفييت ووضح ذلك من إخفاء القادة المصريين خطة «المآذن العالية»[2] وهى خطة العبور عن المستشارين السوفييت وإطلاعهم فقط على خطة «العملية ٤١» والتى تهدف إلى الوصول إلى المضايق حتى يعرفوا نوعية السلاح التى نحتاجه فى هذه المرحلة ورغم ذلك لم يمدنا السوفييت بهذه الأسلحة .

– شعور جميع القادة العسكريين المصريين بالنفور من سياسة الاتحاد السوفييتى فى التسليح وفى ذلك يقول المشير الجمسى « أصبحنا نشعر داخل القوات المسلحة بصفة عامة ، وعلى مستوى القيادة بصفة خاصة بأن الاتحاد السوفييتى لا يشجع دخولنا الحرب ضد إسرائيل ، وبالتالى فإن إمداده لنا بالأسلحة من حيث الأنواع والكميات وتوقيتات التوريد تخضع لنظرته السياسية لحل مشكلة الشرق الأوسط التى تتعارض مع نظرتنا لها سياسياً وعسكرياً » .

ورغم أن قرار طرد الخبراء السوفييت كان له تأثيره على استعداد وكفاءة القوات المسلحة من وجهة نظر بعض القادة العسكريين إلا أنه كانت له آثاره الإيجابية بعد

(١) طه المجدوب – حرب أكتوبر طريق السلام – ص ٣٧ .

(٢) سميت كذلك تيمنا بالأذان الذى سمع وقت الانتهاء من إعدادها.

ذلك التى أثبتت صحته وبعد نظر الرئيس السادات ، حيث تمثلت إيجابيات القرار فى :

– حلل السوفييت والغرب وإسرائيل طرد الخبراء السوفيت بأن مصر لن تدخل الحرب لأن طرد الخبراء سيؤثر على تدريب القوات وكفاءتهم وذلك كان عاملاً مهمًا فى خطة التمويه الإستراتيجية التى تبنتها القيادة المصرية .

– لو كان الوجود السوفييتى فى مصر ظل قائماً أثناء قيام حرب أكتوبر لنُسب إليه فضل العبور وبراعة التخطيط وما صدق العالم أن الجندى المصرى وحده الذى شوهت صورته فى هزيمة ٦٧ فى عيون العالم استطاع العبور وتحطيم أسطورة خط بارليف خاصة وأن ديان علق على الحرب فى مذكراته قائلاً : « لو لم أكن متأكداً أنه لم يبق خبير سوفييتى فى مصر ، لقلت أننا نحارب روسيا نفسها » لذا كان مفيداً للغاية أن نخوض الحرب تخطيطاً وتنفيذاً بحيث تكون مصرية ١٠٠٪ كما يقول المشير الجمسى .

– بقاء السوفييت فى مصر كحليف عسكرى أثناء قيام الحرب سيشجع الولايات المتحدة أن تنزل بكل ثقلها مساندة لإسرائيل من بداية القتال وستكتسب شرعية لذلك لموازنة الوجود السوفييتى مما سيشكل عبئا شديداً على المصريين من بداية المعركة ، ولكن حينما يقوم هجوم مصرى بحت والسوفييت خارج مصر سيدفع الولايات المتحدة إلى التريث نوعا ما، وهو ماحدث بالفعل فى الأيام الأولى للحرب حيث لم تقم الولايات المتحدة بالجسر الجوى لإسرائيل إلا بعد مرور أسبوع على بدء القتال كانت فيه القوات المصرية قد قامت بتنفيذ مهامها المباشرة والمرحلة الأولى الأهم فى الخطة، وذلك رداً على الجسر الجوى السوفييتى لمصر الذى بدأ بعد ٣ أيام من بدء القتال مع اعتبار الفارق بين الجسرين .

– كان السادات يدرك أن السوفييت سيظلون حريصين على علاقتهم مع مصر رغم قراره بطرد الخبراء لأن مصلحتهم تقتضى ذلك فمن العسير أن يخسروا مصر بما

لها من ثقل هام فى منطقة نفوذهم وأن فقدانها لا يمكن تعويضه بأى دولة أخرى حيث أن الروس حظوا لأول مرة باعتراف أمريكا بوجود مصالح للاتحاد السوفييتى فى الشرق الأوسط وأن على كل طرف احترام وجود الآخر فى المنطقة وذلك فى قمة موسكو ولذلك سيحرص السوفيت على إبقاء العلاقات مع مصر بل ستزداد مساندتهم لمصر وبالتالى كان قرار السادات وسيلة هامة للضغط عليهم وبالفعل بدأت تحدث انفراجة فى صفقات الأسلحة مع الاتحاد السوفييتى وظهر ذلك جلياً فى رحلة الدكتور عزيز صدقى الناجحة إلى موسكو فى ١٢ أكتوبر ١٩٧٢ كذلك صفقة مارس ١٩٧٣ التى عقدها وزير الحربية أحمد إسماعيل وشملت أسلحة متقدمة لم يسبق إمدادنا بها من السوفييت .

وكان السيد «إسماعيل فهمى» وزير خارجية مصر الأسبق والذى كان معترضاً على قرار السادات بطرد الخبراء السوفيت قد اعترف فيما بعد فى كتابه «التفاوض من أجل السلام في الشرق الأوسط» بصحة قرار السادات حيث ذكر فى كتابه أن القرار كان له نتائج إيجابية على المدى الطويل بدليل أن بعد القرار بشهور قليلة أصبح الفريق أحمد إسماعيل وزيراً للدفاع و رأس وفداً بصفته هذه إلى موسكو في مارس ١٩٧٣ و نجح في الإتفاق بشأن صفقة أسلحة كبيرة. و كان من الواضح أن السوفييت فهموا ما تقصده مصر من أنه لا يمكنهم الاستخفاف بها و أنه يتعين عليهم أن يقوموا بأعمال إيجابية للمحافظة على العلاقات الطيبة معها. و على الرغم من أن الثلث فقط من الأسلحة التي وعدوا بها سُلِّمَ بالفعل فإن هذا كان كافياً لمصر لتشن حرباً ضد إسرائيل في أكتوبر ١٩٧٣، كما أنه لو ظلّ السوفييت يعملون مع الجيش المصري حتى الحرب فإن ما حققناه من نصر سوف ينسب إليهم بكل تأكيد .

ورغم تحسن العلاقات تدريجيا بعد قرار طرد الخبراء السوفييت إلا أن ذلك لم يزل جدار الشك المتبادل بين السادات والسوفييت ، وبالطبع ليس هناك شك فى أن القرار كان يمثل هزيمة سياسة للاتحاد السوفييتى ومكسبًا سياسيًا للولايات المتحدة

فى إطار نظرية توازن القوى الدولية Balance of Power ، وقد علق البعض على قرار السادات بشأن السوفيت بقولهم أن السادات كان يجب عليه أن يساوم الأمريكان بهذا القرار قبل اتخاذه للحصول منهم على أى خطوة إيجابية نحو القضية العربية فى مقابل إنهائه للوجود السوفييتى فى مصر وانه بذلك قدم لهم هدية جاهزة بدون أن يأخذ المقابل واستندوا فى ذلك على قول «كيسنجر» بعد القرار « ليس من مهمة الولايات المتحدة أن تتطوع بدفع ثمن شىء تم تقديمه لها مجانا ولم يشترط عليها أحد دفعه ، فالسياسة لا تعرف الأخلاقيات » ولكنى من وجهة نظرى المتواضعة لا أرى أن الأمريكان كان فى نيتهم عمل شىء فى هذا الوقت خاصة وأنهم أعلنوا أكثر من مرة فى هذا الوقت أثناء طرح العديد من المبادرات السلمية أنهم لا يملكون ضغطا على إسرائيل فهى دولة بحوزتها أراضٍ ولها أن تفرض شروطها كدولة منتصرة فما الذى يدعو إسرائيل إلى التنازل عن شىء فى ظل عدم وجود ضغوط أو أى تحرك من دول المواجهة من شأنه أن يغير الوضع القائم كالقيام بحرب مثلاً حتى وإن قامت أمريكا بخطوة إيجابية فإنها ستسعى إلى حل مجحف للعرب الذين يقفون فى موقف ضعف الآن أمام إسرائيل المنتصرة ، كما أن «كيسنجر» نفسه اعترف فى مذكراته على أنه لم يفهم فى البداية سياسة السادات فيما يخص إبعاد الخبراء السوفييت ، ولكنه يعتقد بأن ذلك كان دليلاً على ذكائه وخياله الذى لم يكن أحد يتصوره . وقبل اندلاع حرب أكتوبر بثلاثة أيام (٣ أكتوبر ١٩٧٣) استدعى السادات السفير السوفييتى وأخبره أن مصر ستدخل عملية عسكرية من أجل إنهاء حالة اللاسلم واللاحرب ومعرفة موقف الاتحاد السوفييتى من ذلك ، وفى اليوم التالى مباشرة جاء السفير السوفيتى برسالة عاجلة من السوفيت بطلب موافقة السادات على ترحيل الرعايا السوفيت يوم الجمعة ٥أكتوبر حيث سترسل الحكومة السوفيتية أربع طائرات نقل كبيرة لنقلهم وبالطبع كان الرئيس السادات مستاء من هذا التصرف السوفييتى وأثناء الحرب لم يرض السادات عن الجسر

الجوى السوفييتي التى أرسلته لمصر وسوريا خاصة وأنه قارن بينه وبين الجسر الجوى الأمريكى لإسرائيل كما وكيفا إلا أن هذا لم يمنعه من أن يعلن للسوفيت أنه انتصر بالسلاح السوفييتي ، ولم يرض السادات أيضا عن دور السوفييت بعد ذلك فى مباحثات السلام فقد اتجه غربا إلى الأمريكان متيقنا بأن مفتاح حل مشكلة الشرق الأوسط فى أيديهم وأنهى السادات معاهدة الصداقة مع السوفييت فى مارس ١٩٧٦ فقد كان يؤمن أن الاتحاد السوفييتي سينهار مستقبلا وأن الولايات المتحدة ستبقى هى الدولة العظمى المهيمنة على منطقة الشرق الأوسط وهو ما حدث بالفعل وكأنه كان يرى بالأمس ما يحدث اليوم .